﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الجهادُ عندَ الأنبياءِ غايةٌ عُليا

لمّا استعرضَ سُليمانُ الخيولَ الجيادَ أخبرَ أنّه أحبَّها؛ لكونها آلةَ الجهادِ ونشرِ دعوةِ الإسلام، وبَقيَ ينظرُ إليها حتَّى غابتْ عن العُيون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾: (حبّ) أصْلٌ يدلُّ على اللُّزومِ والثَّباتِ[1]. والمَحَبَّةُ: تعلُّقُ القَلْبِ بَين الهِمَّةِ والأُنْسِ في البَذْلِ والمَنْعِ[2]، واشتقاقُهُ مِن أحبَّهُ إذا لَزِمَهُ[3]. وهو كذلك الوِدادُ، ونَقيضُه: البُغْضُ، يُقالُ: تَحَبَّبَ إليه؛ أيْ: تَوَدَّدَ إليه، وتقولُ: أحبَبْتُ الشَّيْءَ فأنا مُحِبٌّ وهو مُحَبٌّ[4]. والمقصودُ به في الآية: مَيْلُ النَّفْسِ إلى الحَسَنِ.

2) ﴿تَوَارَتۡ﴾: أصلُ التَّواري: الاخْتِفاءُ، يُقال: ورَّيْتُ الخَبَرَ أوَرّيه تَوْريةً؛ إذا سَتَرْتَهُ وأظهرتَ غَيْرَهُ، كأنَّه مأخوذٌ مِنْ وراءِ الإنسان؛ لأنَّه إذا قالَ: ورَّيتُهُ فكأنَّه يَجعلُه وراءَهُ حيثُ لا يَظهَر[5]. والوَريُّ: الضَّيْفُ؛ لاستتارِهِ عن أهلِ البيتِ حَياءً، وفُلانٌ وريُّ فُلانٍ؛ أي: جارُهُ الَّذي تواريه بيوتُهُ وتَسترُهُ[6]. والتَّوْريةُ: إخفاءُ الخبَر وعدمُ إظهارِ السِّرِّ، تقول: ورَّيتُهُ تَوْريةً[7]. والمقصود بالتَّواري في الآية: الاستتارُ والاختفاءُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(2) الهروي، منازل السائرين، ص: 88.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (حب).
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ورى).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورى).
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ورى).

3) ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾: (حجب) أصلٌ يدُلُّ على المَنْع والسَّترِ[1]. يُقالُ: حَجَبْتُهُ عن كذا؛ أي: مَنَعْتُهُ. وحَجَبْتُ الشَّيءَ أَحْجُبُهُ حَجْبًا إذا سَترتَهُ[2]. والحِجابُ: السّاترُ للمَرْئيِّ من حائطٍ أوْ ثَوْبٍ. وكلُّ شَيْءٍ حَجَبَكَ فقد سَترَكَ[3]. والحِجابُ في الآية: هو الغُبارُ الكثيفُ النّاشئُ من حركةِ استعراضِ الخيلِ الكثيرةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّائقُ بحالِ الأنبياء الاستغراقُ بالله

يخبرُ اللّه تعالى بما قالَه سليمان ﷺ خلالَ استعراضِهِ الخيولَ الصّافناتِ الجيادَ على سبيلِ الشُّكرِ لربِّه، إذ قال: إنّي أحببتُ استعراضَ الصّافناتِ الجياد، وأحببتُ تدريبَها وإعدادَها للجهاد، من أجلِ ذِكر ربّي وطاعتِهِ وإعلاءِ كلمتِهِ، ونُصرةِ دينِهِ، وقد بقيتُ حريصًا على استعراضِها وإعدادِها للقتال في سبيل اللّه، حتَّى غابَتْ عن أعيُنِ النّاظرينَ بسبب حُلولِ الظَّلام الَّذي يَحجبُ الرُّؤية[4].

هذا هو التَّفسيرُ المُتعيِّنُ الَّذي يتّفقُ مع مركزِ النُّبوّة وشرفِ الرِّسالة ودلالة الحالِ في تعدادِ النِّعم لا النِّقم على سُليمان، فلا يَصِحّ التَّفسير بشيءٍ يتنافى مع هذا، لا سيَّما وقد أمرَ اللّه تعالى نبيّنا ﷺ أنْ يتأسّى بداوودَ وسُليمان، كما في مَطلَعِ الآيات: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: 17][5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بـ(الفاء) في الآيةِ:

الغايةُ من الاستعراضِ بيانُ حُبِّه إبلاغَ كلمةِ الحقِّ

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حجب).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حجب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 234.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 83 - 85، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 194 - 195، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 159.
(5) الزحيلي، التفسير المنير: 23/ 200.

بما قبلَه بحرفِ (الفاء) الدّالَّةِ على التَّعقيبِ الزَّمنيّ، والتّعقيبُ هو باعتبارِ أواخِرِ العَرْضِ المُستمِرّ دونَ ابتدائِه، وللإيماءِ إلى تسبُّبِ القولِ عن ذلك العَرْضِ لآلةِ الجهاد، وبيانِ مَدى حُبِّه لها وعنايتِهِ بها من أجلِ تبليغِ الدَّعوةِ وإيصالِ كلمةِ الحقِّ.

دلالةُ فعلِ (القول) الماضي:

حكايةُ قصصِ السّابقينَ بالزّمَنِ الماضي

جاءَ فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بصيغةِ الماضي المُناسبةِ لحكايةِ القصصِ الماضيةِ، وللدّلالةِ على وقوعِها في وقتٍ سابقٍ لزمنِ التَّكلُّم، وأنّ الغرضَ منها أخذُ العِبرةِ من قصصِ السّابقينَ.

سرُّ التّوكيدِ بـ(إنَّ):

كلُّ ما خلقه الله ينبغي تسخيرُه في سبيل الله

أُكِّدَ الكلامُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بحرفِ التَّوكيد (إنّ)؛ للدّلالةِ على كمالِ حُبِّه لآلةِ الحربِ والجهادِ، وسُرورِه بهذا النَّوعِ من المخلوقاتِ الَّتي سخَّرها اللّه تعالى من أجلِ إيصالِ كلمةِ الحقِّ لجميعِ الخَلقِ، وردًّا على مَن يشكُّ في صدقِ نيّتِهِ أوْ يظنُّ أنَّه يحبُّ ذلك لأمرٍ يتعلّقُ بالمُلكِ وحُبِّ السَّيطرةِ والأُبَّهة.

وجهُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾:

الإيثارُ من لوازمِ الحُبّ

ذهبَ جماعةٌ من المفسّرينَ إلَى أنّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بمعنى: (آثَرتُ)، وقد جاءَ بمعنى الإيثارِ في قَوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3]؛ أي: يُؤثِرونَها، والإيثارُ من لوازمِ الحبّ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا من تسميةِ الشّيءِ باسمِ مَلزومِه.

والَّذي يبدو لنا إبقاءُ كلمةِ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ على مَعناها، وهو تعلُّقُ القلبِ بآلةِ الجهاد؛ لأهمّيَّتِها في نَشْرِ رسالةِ التَّوحيدِ الَّتي جاءَ بها جميعُ المُرسَلينَ.

نكتةُ الاستعارةِ في ﴿أَحْبَبْتُ﴾:

الأمراضُ تحتاجُ إلى التّداوي بأضدادِها

تضمّنَ قولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ - على قولِ بعضٍ - صورةً بيانيّةً، فقد استعارَ النّظمُ إحبابَ البعيرِ - أي: لزومَ مكانِهِ عن تعَبٍ أوْ مرضٍ ونحوِه - لِلزوم سُليمانَ محبّةَ الخيل، ففي ﴿أَحْبَبْتُ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ لا يخفى حسنُها ومُناسبتُها للمقام. ويمكنُ أن يُقالَ: إنّه مجازٌ مُرسَلٌ، حيثُ ذُكِرَ المقيَّدَ وأُريدَ المطلق، ثُمَّ أريدَ المقيَّدُ الآخرُ فيكونُ مَجازًا بمرتبتين، أوْ أُريد المقيَّدُ الآخَرُ عَلَى أنّه فردٌ من أفرادِهِ فيكونُ مَجازًا بمرتبةٍ واحدةٍ. والَّذي يظهرُ لنا أنَّ الحبَّ بمعنى تعلُّقِ القلبِ بالخيلِ؛ لكونها تحملُ الدّعوةَ، ويدافعُ بها المؤمنونَ عن الإسلام.

بلاغةُ التّضمينِ في ﴿أَحْبَبْتُ﴾:

الإيجازُ بدلالةِ كلمةٍ على معنى كلمتينِ

عُدّي الفعلُ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ بالحرفِ ﴿عَن﴾، والأصلُ أنْ يُعدّى بـ(على)؛ لأنّه بمعنى (آثرتُ) عندَ بعضهم؛ فمعنى أحببتُ حبَّ الخير: آثرتُ حبَّ الخير عَلَى ذكرِ اللّه ﷻ. ونظيرُهُ قولُه سبحانه: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [التّوبة: 23]؛ أي: آثَروهُ عليه؛ ولهذا قالوا: إنّ الفعلَ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مُضمّنٌ معنى فعلٍ يَتعدّى بـ (عن)؛ كأنَّه قيل: أنَبْتُ أوْ عَوَّضْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذكرِ رَبّي، أوْ جعلتُ حبَّ الخير مُجْزيًا أوْ مُغْنيًا عن ذكر ربّي[1]. وبلاغةُ التَّضمين: أنْ يُدَلَّ بكلمةٍ واحدةٍ على معنى كلمتينِ[2].

والَّذي يتبيّنُ لنا: أنَّ ذلك تكلّفٌ واضحٌ؛ فقد جعلوا ﴿أَحْبَبْتُ﴾ بمعنى (آثرتُ)، وضمَّنوا ذلك معنى فعلٍ آخَرَ، والظّاهرُ أنَّ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مستعملٌ في معناه الَّذي هو تعلُّقُ القلبِ بالشَّيءِ لمَقصدٍ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 92، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 390.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 687.

سامٍ تقدّم ذكرُهُ؛ إذ لا يليقُ بالنَّبيِّ المُرسَلِ سُليمانَ ﷺ أنْ يُؤثِرَ على ذكرِ اللّه شيئًا مِن الدُّنيا.

الأوجهُ الإعرابيّةُ في لفظِ ﴿حُبَّ﴾:

تنوّعُ المعاني الدّلاليّة بتنوُّعِ الوجوهِ الإعرابيّة

ذكر المفسِّرون في إعرابِ لفظِ ﴿حُبَّ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ عدَّةَ أوجه:

أحدُها: أنّه مفعولُ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾؛ لأنّه بمعنى (آثَرتُ).

الثّاني: أنّه مصدرٌ على حذفِ الزّوائد؛ أي: مفعولٌ مطلقٌ، والنّاصبُ له ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾.

الثّالث: أنّه مصدرٌ تشبيهيٌّ؛ أي: حبًّا مثلَ حبِّ الخيرِ.

الرّابع: أنّه مفعولٌ مِن أجلِه؛ إذا جُعِلَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ من أحبَّ البعيرُ إذا سقطَ وبركَ مِنَ الإعياء. والمعنى: قعدتُ عن ذِكرِ ربّي لحبِّ الخير[1].

الخامس: أنّ أصلَ التّركيبِ في قوله تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ هو: أحببتُ الخيرَ حُبًّا، فحوِّلَ التَّركيبُ إلى ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ فصارَ ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ تمييزًا؛ لإسنادِ نسبةِ المَحبّة إلى نفسِه لغرضِ الإجمالِ ثمَّ التّفصيلِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: 12][2].

ولا يخفى أنّ توجيهَ (المفعول به والتَّمييز) من أقوى الوجوه؛ لأنَّ جعلَ ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مَحبوبًا مبالغةٌ في توصيفِ حالِ سُليمان معَ خيله وآلات جهادِهِ في سبيلِ اللّه، فهو لم يكتفِ بحُبِّ الخيل، بل أحبَّ حُبَّها، وفي جعلِ الحبِّ مفعولًا به مجازٌ عقليٌّ أوِ استعارةٌ مكنيّةٌ؛ إذ الحبُّ لا يتعلّقُ الحبُّ به معمولًا له إلّا على ذَيْنِكَ التَّقديرين.

بلاغةُ الجناسِ في ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مُحسِّنٌ بديعيٌّ يُسمّى

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 376.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.

جناسُ الإلحاقِ بما اتّفقَ في أصلِ الاشتقاق

جناسَ الاشتقاق؛ إذ توافقَتْ كلمتا ﴿أَحْبَبْتُ﴾ و﴿حُبَّ﴾ في الحروفِ الأصولِ، وهو مُلحَقٌ بالجناسِ الاصطلاحيّ؛ إذ كثيرًا ما يُلحَقُ بالتّجنيس الكلمتانِ الرّاجعتانِ إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المُسامحة، ولما فيه من التَّجانُسِ اللَّفظيِّ والصَّوتيِّ[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾:

عمومُ الخيرِ في المالِ النّفيسِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مُعرّفًا بـ(أل) الدّالّةِ على تعريفِ الجنس، فيَقتضي عُمومَهُ، والخيرُ في الأصلِ هو المالُ النّفيسُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، ولا شكّ أنّ الخيلَ من أعزِّ المالِ النّفيس. وقال بعضُ العلماء: إنّ الخيرَ هو الخيلُ، والعربُ تُسمّيها كذلك؛ لتعاقُبِ الرّاء واللّام، فتقول: انهمَلَتِ العينُ وانهمَرَت، وختلَتْ وخترَتْ إذا خدعَتْ. قال الفرّاء: "الخيرُ في كلامِ العربِ والخيلُ واحدٌ"[2]، ويَشهدُ لذلك حديثُ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[3]، فكأنّها سُمّيتْ خيرًا لهذا[4]. وقيل: إنّ العربَ مِن عادتِهم التَّفاؤُلُ، ولهم بالخيلِ عنايةٌ عظيمةٌ، حتّى وصَفوا شياتِها، وزَعَموا دلالتَها على بَخْتٍ أوْ نَحْسٍ، فلعلَّهم سَمَّوْها (الخيرَ) تفاؤُلًا؛ لتتمحّضَ للسَّعدِ والبَخْتِ[5].

مَعنى ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾:

ذكرُ اللهِ تعالى باعثٌ لحُبِّ الخيرِ

عُدّي الفعلُ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ من غيرِ اعتبارِ تضمينِهِ بالحرفِ ﴿عَن﴾، ومعناها المُجاوزة، والتّقديرُ: (أحببتُ الخيرَ حبًّا فجاوزتُ ذكرَ

(1) العصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 405.
(3) أخرجه البخاري برقم: (3645).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 194.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.

ربّي)[1]، ويجوز أن يتعلَّق ﴿عَن﴾ بمقدّرٍ كـ(مُعْرِضًا وبعيدًا)، وهو حالٌ من ضميرِ ﴿أَحْبَبْتُ﴾. ومع اعتبارِ تضمينِ الفعل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ معنى (آثَرْتُ) يكونُ ﴿عَن﴾ بمعنى (على)، قالَ الزّجّاج: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾: آثرتُ حبَّ الخير عَلَى ذكرِ اللّهِ ﷻ[2]. وجَوَّزَ بعضُ العلماء كونَ ﴿عَن﴾ تعليليّةً، والتّقدير: (أحببتُ الخيلَ بسببِ ذكر ربّي)؛ أي: بسببِ كتابِ اللّه تعالى وهو التَّوراةُ؛ فإنّ فيه مدحَ الخيلِ[3]، أوْ بمعنى: إنّ هذه المحبّة الشّديدةَ إنّما حصلتْ عن ذكرِ اللّهِ وأمرِهِ لا عن الشّهوة والهَوَى[4].

ولا يَخفى ما في هذه الوجوهِ من عدمِ مُلاءمةٍ لمقامِ الأنبياء والمرسَلين، والصّوابُ أنَّ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ باقٍ على معناه، وأنَّ ﴿عَن﴾ موضوعةٌ للمجاوزةِ، مستعملةٌ هنا بمعنى التَّعليل؛ إذِ السَّببُ باعثٌ على المسبّبِ، فيكونُ المُسبّبُ متجاوزًا عنه، وهكذا يتجاوزُ حبُّ الخيرِ عن سببِهِ وهو ذكرُ اللّه تعالى، ويكونُ الذِّكرُ للّه والاستغراقُ بالثَّناء عليه كما هو اللّائقُ بحالِ المُرسَلين سببًا لحُبِّ الخيلِ والخيرِ.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ذِكْرِ﴾:

أوثر في قوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ التّعبيرُ بلفظِ (الذِّكر)، وأصلُهُ خلافُ النّسيان، ويُطلَقُ الذِّكْرُ على حضورِ الشّيءِ بالقلب أو بالقول، ولذلك قيلَ: الذِّكْرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلبِ وذِكرٌ باللّسانِ[5]. ومن المفسّرينَ مَن جعلَ (الذّكر) في هذه الآيةِ بمعنى التّوراة[6]، وهو نظيرُ الذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النّحل: 43]؛ أي:

أفضلُ العِبادات ذكرُ الله بالجَنانِ واللّسان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.
(2) الزجّاج، إعراب القرآن وبيانه: 4/ 331.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 184.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 390.
(5) الراغب، المفردات: (ذكر).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 184.

الكتبِ المُتقدِّمة، وسُمِّيَتْ ذكرًا؛ لأنّها تُذَكِّرُ النّاسَ بما يجبُ عليهم، أوْ لأنّ فيها التّذكيرَ باللّه واليوم الآخِر. وذهبَ بعضُهم إلى أنّ المرادَ بالذّكر هنا الصّلاةُ، فلعلّها صلاةٌ كانَ رتّبَها لنفسِه؛ لأنّ وقتَ العشيّ ليستْ فيه صلاةٌ مفروضةٌ في شريعةِ موسى عليه السلام إلّا المغربُ[1].

والّذي يبدو لنا عدمُ الحاجةِ إلى تأويلِ (الذِّكر) بالتّوراة أو بالصّلاة، بل إبقاءُ (الذّكر) على معناه الأصليِّ وهو الثّناءُ على اللّهِ بالقلب واللّسان كما هو حالُ الأنبياء؛ فقد دفعَهُ الانشغالُ القلبيُّ باللّه تعالى إلى حُبِّ الخيلِ الّتي يغزو بها في سبيلِ اللّه تعالى، وليسَ كما فهمه بعضُهم بأنَّه دفعَهُ الانشغالُ القلبيُّ بالخيلِ عن ذكر اللّه تعالى.

إيثارُ لفظِ (الرَّبّ) مُضافًا إلى ضميرِ المُتكلّم:

شفقةُ الرّبِّ بالمَربوبِ والإحسانُ إليه

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بلفظِ (الرَّبِّ) دونَ ما سِواهُ من أسماءِ اللّه وصفاتِه؛ لما في وصفِ الرّبوبيَّة منَ الدّلالةِ على الشّفقةِ بالمَربوبِ، ومَحبّةِ الخيرِ له، ولتتأتّى الإضافةُ المُفيدةُ للتّشريف والقُربِ؛ فهو ربُّهُ الّذي أحسنَ إليه بكلّ هذه النِّعَم من النّبوّةِ والمُلك وغيرهما[2].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾:

انشغالُ سليمانَ بالخيلِ حتّى تَتوارى عن الأنظارِ

يدلُّ الحرفُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ على الغايةِ والتّدريج، وقد استشكلَ المفسّرونَ معنى (الغاية) هنا؛ لأنّ الفعلَ يكونُ قبلَها مُتطاولًا حتّى تصحَّ الغايةُ، وظاهرُ هذا اللّفظِ يدلُّ على أنَّ سليمانَ عليه السلام كانَ يقولُ: إنّي أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذكرِ ربّي، وكانَ يُعيدُ هذه الكلماتِ إلى أنْ توارتْ بالحِجاب، ولا يَخفَى بُعدُهُ، فلو قلنا: المرادُ: (حتّى توارتِ الصّافناتُ بالحجاب) كان معناهُ: أنّه حينَ وقعَ بصرُهُ عليها حالَ جَرْيِها كانَ يقولُ هذه الكلمةَ إلى أنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 202.

غابَتْ عن عينِهِ، ولو قلنا: المرادُ: (حتّى توارتِ الشّمسُ بالحجاب) كان معناه: أنّه كانَ يُعيدُ عينَ هذه الكلمةِ مِن وقت العصرِ إلى وقتِ المغرب، وهذا في غايةِ البُعد. والجمهورُ على أنّه ﷺ بَقي مشغولًا بتلك الخيلِ حتَّى غربتِ الشّمسُ وفاتتْ صلاةُ العصر[1].

والّذي يتبيَّنُ لنا وفْقَ ما تقدّمَ: أنَّ سليمانَ أحبَّ الخيلَ بسببِ ذكرِ ربِّه، وأنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ دالةٌ على الغاية والتَّدريج، والتَّقديرُ: فتَبِعَها ببصَرِهِ مِن حُبِّه لها حتّى توارَتْ تلك الجيادُ واستترتْ بالحِجابِ من الغُبارِ المُتشكّلِ أثناءَ حركتِها وجَرْيِها، ممّا يُنبئُ عن مَدى اهتمامِهِ بآلةِ الحربِ وإعجابِهِ بها لمقصدِ نشرِ الدّينِ والتَّوحيدِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿تَوَارَتْ﴾ دونَ غيرِهِ:

التّـواري لازمٌ للاستعراضِ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ ﴿تَوَارَتْ﴾، وأصلُ التَّواري: الاِخْتِفاءُ والاستتارُ عن الأبصار، وهو مقابلٌ مُضادٌّ للعَرْضِ في قولِه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؛ إذ العرضُ يدلُّ على الإقبالِ لأجل الاستعراض، فيكونُ التّواري عن الإنظارِ مُقابِلًا له، ففيه صنعةُ الطِّباق.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في ﴿تَوَارَتْ﴾:

حـذفُ ما يُعلَمُ جائزٌ وبليغٌ

اختلفَ المُفسّرونَ في عَوْدِ الضّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾؛ وأشهرُ الأقوالِ أنّه عائدٌ على (الشّمس)، فهو كنايةٌ عن غيرِ مَذكور، مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]؛ أي: على ظَهْرِ الأرض، وتقولُ العرب: هاجَتْ باردةً؛ أي: هاجَت الرّيحُ بادرةً، وإنّما يجوزُ الإضمارُ إذا جرى ذِكْرُ الشَّيءِ أوْ دليلُ الذِّكْرِ، وقد جرى هاهنا الدَّليلُ، وهو قولُه: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾، والعشيُّ ما بعدَ الزَّوال. وقالتْ طائفةٌ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخيلُ في المُسابَقة، وذلك أنّ سليمانَ كانَ له ميدانٌ مُستديرٌ يُسابَقُ فيه بينَ الخيل، حتّى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 154، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 390.

توارَتْ عنه وغابت عن عينِهِ في المُسابقةِ؛ لأنّ الشّمسَ لم يجرِ لها ذكرٌ، وهو ما نميلُ إليه؛ لأنَّ الغايةَ من ذكرِ تواري الخيلِ عن الأنظارِ بيانُ كثرتِها، حتَّى إنَّها شكّلَتْ بحركتِها وجَرْيِها غُبارًا كثيفًا، فكانتْ تَتوارى عن الإنظارِ بسببِهِ.

معنى (الباء):

الـحِـجـابُ مُشتمِلٌ اشتمالَ الـظّـرفِ على المظروفِ

يجوزُ في (الباء) الجارَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أنْ تُحمَلَ على الظّرفيّةِ أوِ الاستعانةِ أوِ المُلابَسةِ، ومعنى الظَّرفيّةِ والمُلابسةِ: أنّ الحجابَ اشتملَ على المُتواري (الشّمسِ أوِ الخيلِ) اشتمالَ الظّرفِ على المظروف، ومعنى الاستعانةِ: أنّ المُتواريَ (الشّمسَ أوِ الخيلَ) استترَتْ بشيءٍ يَحجبُها عنِ الأبصار[1].

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ (الحِجاب):

الـحِـجـابُ هو السّاترُ للأبصارِ عنِ الإبصار

عبّر النّظمُ الكريم بلفظِ (الحِجاب) في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، وأصلُ (حَجَبَ) يدلُّ على المَنْعِ والسَّتر[2]، فالحِجابُ: السّاترُ للمرئيِّ. وقد جاءَ لفظُ (الحجاب) مُعرّفًا بـ(أل) الدّالّة على المعهودِ، واختلفَ المفسّرونَ في تحديدِ هذا الحجابِ تبَعًا لاختلافِهم في المُتواري، فمَن قال: إنّ المُتواريَ هي الشّمسُ قال: الحجابُ هو مَغربُها أوِ الجبلُ؛ لأنّها تتوارى خلفَهُ، أو هي الأرضُ الّتي حالَتْ بينَهُ وبينَها فصارَتْ وراءَها حقيقةً[3]. ومَن قالَ: إنّ المُتواريَ هي الخيلُ قالَ: إنّ المرادَ بالحِجاب إصطبلاتُها أوْ ظلامُ اللّيلِ الّذي يَحجبُ الرُّؤيةَ[4].

والّذي يبدو لنا: أنّ (الحجابَ) هنا هو الغبارُ الكثيف، وإنّما عرّفَه وجعلَه معهودا؛ لأنّ من لوازمِ الاستعراضِ بالخيل نشوءَ غُبارٍ في الأفق، وهي تتوارى عن أنظارِ سليمانَ فيه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 184، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 378.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حجب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 380، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 378.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 154، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 226.

غرضُ الخبرِ في الآيةِ:

ابتهاجُ سُليمانَ لا تحسُّرُه

خرجَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ على مذهبِ جمهورِ المُفسّرين مَخرجَ التَّحسُّرِ؛ اعترافًا بما صدرَ عنه من الاشتغالِ عن ذكر اللّهِ وندمًا عليه، ويرى آخرون: أنّ القولَ المنسوبَ للجمهور لا يناسبُ مَناصِبَ الأنبياء، فأوّلوا هذه الآيةَ بأنّه قد عُرِضَ على سليمانَ الخيلُ وهو في الصَّلاة، فأشارَ إليهم أنّي في صلاتي، فأزالوها عنهُ حتّى دخلَتْ في الإصطبلات، فقالَ لمّا فرغَ من صلاته: إنّي أحببتُ حبَّ الخير؛ أي: الّذي عندَ اللّه في الآخرةِ بسببِ ذكرِ ربّي، فشغَلَني ذلك عن رُؤية الخيلِ حتّى أُدخِلَتْ إصطبلاتِها[1]. والّذي نراه: أنَّ الخبرَ دالٌّ على ابتهاج سليمانَ بذلك العَرضِ المَهيب الدّالِّ على قوّتِهِ في نشرِ أوامرِ اللّه ودينِهِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 154.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»